الطباعة والنشر بالمغرب من 1864 إلى 1956

الأبعاد والانعكاسات الاجتماعية والثقافية*

لطيفة الكندوز – المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط

تعتبر الطباعة من أنجع أدوات نشر الثقافة في العصر الحديث، وهي بلاشك قلبُ الحضارة المعاصرة، ومرآةُ تقدم الشعوب، فلولاها لما انتشرت العلومُ والمعرفةُ في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد بقي الكتابُ المخطوطُ عزيز المنال لا يحصلُ عليه طالبُ العلم الفقير إلاّ في النادر، فظل الكثيرُ من أهل العلم محروما من الكتب الضّرورية لهُ، حتى جاء عصرُ الطّباعة فأحدث ثورةً في عالم الثقافة بتوسيعه لمجال المعرفة بعد أن كانت حكراً على جماعة معينة من الأثرياء.

وتُعتبرُ حركة الطبع جزءاً مهماً من الممارسة الثقافية في المغرب الحديث، حيث تمكنت آلةُ الطباعة من تغيير العديد من المعطيات الثقافية، وساهمت في نقل وتبادل الآراء، كما نجحت في خلق وعي إسلامي عميق، ساعد في صياغة الشخصية الوطنية المغربية التي مكنت البلاد من الصمود في وجه جميع التأثيرات الحضارية والفكرية الوافدة مع الحماية الفرنسية بالمغرب. كل هذا يُظهرُ مدى ما تعرفه حركة الطباعة من أهمية بالنسبة لتاريخنا المعاصر. لأن دور المطبعة لم يقتصر على الجانب التقني الصرف فحسب، بل كانت أداةً حيويةً فعّالة، ساهمت بقسط وافر في العديد من التّحوُلات السياسيّة والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

وتتحدد الإشكاليةُ التي يحاول البحث الإجابة عنها من خلال الأسئلة التالية :

1 ـ لماذا كان المغربُ من أواخر الدول الإسلامية إقبالاً على فنّ الطباعة رغم قربه الشديد من أوربا؟

2 ـ كيف كان تصورُ المغاربة لفنّ الكتابة الجديد ؟ وبالتالي هل كانت المطبعةُ بالنسبة لهم أداةً لنشر المعرفة وإثراء الحوار الحضاريّ مثل أوربا ودول المشرق؟ لم كانت لديهم

* عنوان أطروحة في التاريخ نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتاريخ 21 / 12 / 2002

تصورات أخرى؟

3 ـ ما هي الأهدافُ التي وُظِّفت من أجلها تكنولوجيةُ الطباعة ؟

4ـ ما هي حصيلةُ المطابع المغربية ما بين 1865 ـ 1956 م ؟ وما هي أهمّ خصائص الإنتاج الفكريّ المطبوع ؟

5ـ ما مدى علاقة الطباعة بالتحولات السياسية والثقافية والاجتماعية التي عرفها المغربُ منذ ظهورها سنة 1864 م إلى استقلال البلاد سنة 1956 م ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، تمت معالجة الموضوع في قسمين كبيرين :

القسم الأول: يندرج تحت عنوان: ظهورُ الطباعة بالمغرب وأنواعُها وأبعادُها وانعكاساتُها. وقد عولج في خمسة فصول:

. **الفصل الأول** يُعطي نظرةً مقتضبةً عن تاريخ الطباعة، موضّحاً كيفية اختراعها من طرف الألماني يوهان كوتنبرغ حوالي سنة 1450 م، وموقف رجال الدين والعامةّ من هذا الفنّ الجديد للكتابة، ثم يتطرقُ لكيفية انتشارها في العالم وانتقالها إلى العالم الإسلاميّ والعربيّ.

. **أما الفصل الثاني** فيُعالجُ أسباب التأخر المسجّل في إدخال الطباعة إلى المغرب، ذلك أن المغاربة لم يستعملوا هذا الفنّ الجديد للكتابة إلاّ بعد مرور أربعة قرونٍ على اكتشافه بأوروبا حيث كان المغربُ آخر دول الشمال الإفريقي، ومن أواخر الدول الإسلامية إقبالاً على التقنية الجديدة للكتابة، رغم كونه من أقربها إلى أوروبا. ومرد ذلك يرجع بالأساس إلى التوجه العام السائد داخل المجتمع المغربي المبني على المحافظة على التقاليد، ورفض أي تغيير أو تجديد، أو تفتح على أوروبا وحضارتها.

كما يتطرقُ هذا الفصلُ إلى ظهور مطابع عبرية بفاس في وقت مبكر من القرن السادس عشر على يد اليهود المطرود جينب من الأندلس، ويبُرز اختلاف الآراء وتضاربُها حول وجود هذه الطباعة.

. **الفصلُ الثالثُ** ويتضمنُ ثلاث نقط : الأولى تعالج ظروف دخول الطباعة إلى المغرب الذي لم يتمّ على يد الدولة وإنما حدث بمبادرة فردية على يد قاضي تارودانت محمد الطيب

الروداني، الذي جلب من مصر أثناء رجوعه من الحج سنة 1281 هـ/ 1864 م، مطبعةً حجريةً، كما استقدم طباعاً مصرياً لتشغيلها. لكنها سرعان ما انتقلت إلى ملكية المخزن، الذي أصبح يُشرف على تسيير جميع شؤونها.

كما تقدم هذه النقطة تعريفاً بأصحاب المطابع ومشاريعهم والصعوبات التي واجهتهم، وتتطرق لموقف العلماء من التقنية الجديدة للكتابة باعتبار مكانتهم الاجتماعية، حيث سُجِّل الإقبال الكبير من طرفهم على الطباعة الحجرية لكونها تمثلُ التقنية الأكثر ملاءمةً لأذواقهم، وكذلك لإدراكهم لمزاياها المتمثلة في تكثير الكتب وتسهيل طرق التعليم ونشر العلم والمعرفة، رغم أن البعض اعتبرها تمتهنُ الكتاب وتسلُبُه قداسته، وتعملُ على إخماد القرائح وإهمال حفظ العلم في الصدور.

وخُصصت النقطة الثانية من هذا الفصل لدراسة الطباعة السلكية حيث تم توضيحُ الانتشار الواسع الذي عرفه الكتابُ المغربيُّ مع ظهورها، وقد عالجت هذه النقطةُ دراسة مسألة الطباعة بمنطقة الشمال على يد الإسبان، ودراسة أهم المطابع السلكية التي ظهرت بالمغرب قبل الحماية وأثناءها، مع استخلاص الفروق الأساسية بين الطباعتين: الحجرية والسلكية.

وقد شكلت قضية النشر والتوزيع للكتاب المطبوع أساس النقطة الثالثة من الفصل الثالث، فعيِّنت خلالها الجهات التي تُحددُ طبيعة المعرفة الواجب نشرُها في أوساط القراء مع الإشارة إلى كيفية تسويق الكتاب المطبوع في الداخل والخارج.

أما الفصل الرابع: فقد خُصِّص للكشف عن طبيعة ومحتوى الإنتاجه المطبعي الصادر ما بين 1865 ـ 1956م، وُضِّحت من خلاله أصناف المؤلفات التي كانت تُعرض على جمهور القراء بواسطة المطبعة، مع قراءة تحليلية لهذا الإنتاج المطبعي، حُدِّدت من خلالها الخصائص التالية:

1ـ تناول الكتابُ المغربي الذي أبرزته المطابعُ ـ بنسب مختلفة ـ جلَّ الموضوعات، حيث جمع بين الثقافة التقليدية ومعطيات العلوم الحديثة؛

2ـ اتسم النشرُ بالثراء الموضوعي، بيد أنه

على الرغم من ذلك الثراء الذي أكسبه تنوعاً وتبايناً، فهو من الناحية المعرفية غيرُ متوازن، فقد كشف التحليلُ الموضوعي لأصناف المطبوعات، تفوق نشاط المطبعة والنشر في الموضوعات الدينية التي استأثرت بحصة عالية أبرزبيتز على النصف، خصوصاً في الفقه والحديث والتصوف:

3ـ من الناحية الزمنية، يُلاحظُ تغايرُ أنماطه واتجاهات الطبع قبل الحماية وأثناءها، فالمطبوعاتُ الصادرةُ قبل سنة 1912 م اهتمت بنشر كتب التراث لمؤلفين مغاربةٍ وأندلسيين وبعض المشارقة في مواضيع تتصل بعلوم الدين واللغة، أما بعد سنة 1912 م، أي خلال فترة الحماية فقد حصلت بعض التحولات في ميدان النشر، حيث تشعب الطبعُ وتنوعت مواضيعهُ ليشمل مختلف فنون المعرفة، فلم تعد الطباعةُ تعمل لخدمة فئة معينة من طلاب العلم، بل قدمت خدماتها لعامة القراء، فظهر كتاب التاريخ والشعر والفن إلى جانب الكتاب الديني وإن قلت أعدادُهُ نظراً للمضايقات السرّجية والعلنية التي تعرض لها الناشرون والطابعون من طرف سلطات الحماية.

ـ أما الفصل الخامس والأخير من هذا القسم فقد عالج أبعاد وانعكاسات المطبعة، موضحاً التحولات والتغيرات التي ساهمت المطبعةُ في إحداثها بالمغرب. والتي أظهرت بأن الطباعة لم تكن مجرد أسلوب فنيّ جديدٌ لنسخ الكتب بكثرة، بل تجاوزت هذا المفهوم لتُصبح بحقٍ وسيلةً لتغيير نمطٌ حضاريٌ كاملٌ وإدخال روحٌ جديدةٌ للثقافة والعلوم.

ويضم القسم الثاني من هذا البحث بيبليوغرافيا للمطبوعات المغربية الصادرة ما بين 1865 ـ 1956 م، وذلك بهدف رسم خريطة تقريبية لكل ما تم إنجازه في ميدان الطباعة على امتداد قرن من الزمن، في جميع فروع المعرفة.

لقد تم تبويب هذه البيبليوغرافيا وتصنيف الكتبه (حوالي 1400 عنوان) حسب الأقسام الرئيسية للتصنيف العُشري الدولي، وأرفقت بالعديد من المعلومات ـ على نمط علمي ـ تتعلق باسم المؤلف وتاريخه وفاته ومصادر ترجمته، وذكر تاريخ الطبع ومكانه، مع ملخصٌ عن موضوع كل كتاب.

هكذا، وقد حاولت هذه الدراسة أن تُظهر بأن

المطبعة لم تكن مجرد أداةً لنشر الكتب وتوثيقها والمحافظة عليها فحسب، بل ساهمت بقسطٍ وافرٍ في التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي عرفها المغربُ خلال الفترة الممتدة من سنة 1864 م إلى استقلال البلاد سنة 1956م. فمن الناحية السياسية وجد المخزنُ المغربي في تكنولوجية الطباعة الوسيلة الحيوية لتوضيح سياسته وتوجهاته، والأداة الفعالة لكسب المزيد من التأييد في الداخل والخارج، وذلك عن طريق طبع بعض الكتب، وإشرافه على توزيعها دون مقابل على مراكز العلم في المغرب ودول المشرق.

ولم يقتصر اتخاذ هذا الإجراء على المخزن وحده، بل شارك في ذلك العلماءُ وزعماءُ الطرق الصوفية، كماء العينين والكتانيين وأبناءُ الزاوية الفاسية الذين استفادوا استفادةً كبيرةً من استعمال تكنولوجية الطباعة، حيث وجدوا فيها خير وسيلة لنشر كتاباتهم وإيصالها إلى الأتباع والقراء.

وفي نفس الوقت استعانت الدولةُ الفرنسيةُ بالمطبعة لتحقيق أغراضها الاستعمارية، فأنشأت مطابع مواليةً لها بطنجة، استغلتها أحسن استغلال للدعاية لسياستها الإصلاحية والتمهيد لفرض سلطتها على المغرب.

أما على المستوى الثقافي، فإن الطباعة بتوفيرها للكتب مع رخص ثمنها مقارنةً بالمخطوطات، ساهمت في إنزال الكتاب من بُرجه العاجي الأرستقراطي الذي كان حكراً على طبقة الأثرياء إلى المستوى الشعبي، وأصبح عامةُ القراء هم العناصر الجديدةُ المستهدفةُ التي بدأت تشكّلُ الزبون الرئيسي لصناعة الكتاب.

ولم يقتصر دور المطبعة على انتقال المعرفة وذيوع العلم، بل ساهمت في تبسيط طُرق التعليم وتطوير برامجه ومناهجه، وأغرت العلماء على التأليف والنشر، كما وسّعت دائرة النشاط الفكري عما كان عليه من قبلُ، وأسهمت إسهاماً كبيراً في تنشيط الحركة الفكرية وإبرازها إلى الوجود، حيث أطلقت العديد من أنواع العلوم والفنون من عُقّالها، وأخرجتها من طور الجمود الذي كان يهيمن عليها، مما ساهم في توسيع المدارك الثقافية

وانفتاحها على تياراتٍ فكرية جديدة. حيث صار العلماءُ يعتمدون على البحث والتحليل أكثر مما يعولون على الرواية والتقليد، وأخرجت المطابعُ كتباً في شتى العلوم وذات مواضيع مختلفة، ونُشرت الدراسات المتنوعة في السياسة والتاريخ والمسرح والأدب.

واعتباراً لهذا، لم يكن من الممكن دراسةُ المطبعة بمعزلٍ عن الأحداث التي عاشها المغربُ طيلة قرن من الزمن، والاقتصارُ على اعتبارها مجرد آلة تقنية محايدة، يكمُنُ دورها فقط في صناعة الكتب وتوثيقها والمحافظة عليها، بل يجب إقحامُها في الإطار الاجتماعي والتاريخي للمغرب، نظراً لما لها من أبعادٍ وانعكاساتٍ كثيرة على عدة مستويات، ولكونها ساهمت بقسط وافرٍ في التحولات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي عرفها المغربُ منذ أواخر القرن التاسع عشر.

لذا يمكن اعتبارُها، وبامتياز، الأداة الفاعلة والناقلة للمكتوب، وقنطرة عبور أساسية لتفعيل التواصل وتبادل الآراء بين مختلف مكونات المجتمع.

الكندور, لطيفة. 2004. الطباعة و النشر بالمغرب من 1864 إلى 1956 : الأبعاد و الانعكاسات الاجتماعية و الثقافية. *آفاق جامعية,*مج. 2004, ع. 1, ص ص. 33-38.